

كلمة الأستاذ الأديب سيد قطب

نشرت بمجلة السوادى

هذى هى الاغلال

لم أكن أنوى أن أكتب شيئاً عن هذا الكتاب ، لا خيراً ولا شراً . فلعل صاحبه أن يصل إلى أهدافه الحقيقية من طريق الشر والخير سواء .

والكتاب وصاحبه معى قصة ما كنت لأفشيها للناس لولا أنها تكررت مع غيرى فلم تعد سرّاً .

أهدى إلى الرجل كتابه ، ومضت فترة لم أكن قد فرغت فيها لقراءته . ثم تفضل فزارنى مع صديق كريم عزيز أحمل له فى نفسى وداً مكيناً ، وسر لى الصديق ثم أعلن أنه وافد إلى فى مهمة . إن حرية الفكر فى خطر .

فهذا الرجل صاحب الكتاب قد عنت له أفكار وآراء جريئة فأودعها كتابه ، وخصومه من الرجعيين والنفعيين فى الحجاز يدسون له هناك . وأنه على وشك أن يستدعى لمحاكمته ، وربما لشنقه ! وأن على كاتب يقدر رسالة الفكر أن أشارك فى الذود عن حرية الفكر الموشكة على الاختناق .

- ذن -

ولم يكن بد من أن أتحمس في أول الأمر فعزيز على صاحب فكر وقلم أن يسمع ويرى خنق حرية الفكر ولا يتحمس أو يثور، ووعدت أن أفعل في حدود ما أستطيع .

وجلس الرجل وأخذنا بأطراف الحديث - في داري - وشيئافشيئاً بدأت أشم رائحة في الحديث . رائحة ليست نظيفة .

هذا رجل يريدني على أن أفهم أن الانجليز في الشرق قوم مصلحون لاستعمرون . وأن وسائلهم في الشرق أرقى وأكرم من وسائل المسلمين عند ما استعمروا الشعوب .

وليس - المسلمين - هم الأتراك مثلاً فأجد عذراً ؛ ولكنهم أصحاب محمد بن عبد الله وعمر بن الخطاب . بل القرآن الذي أباح التخريب والتمثيل .

وكان ذلك كله رداً على ما قلته له : من أن الاستعمار لا قلب له ولا ضمير . وأن الحضارة الأوروبية الحديثة تستخدم وسائل غير إنسانية في الحروب وغير الحروب .

إن المسلمين صنعوا تلك الشناعات وبعد ما صنعوها جاء القرآن ليبررها لهم ، « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله » ! ولم يرد أن يستمع إلى حديثي عن وصايا النبي للقواد ، ولا إلى وصايا خلفائه الإنسانية الرحيمة .

فليكن ! فقد تكون تلك عقيدة يجاهر بها صاحبها ويتحمل تبعاتها وتأتجها ! ثم ماذا ؟

ثم يجب أن ننفي العنصر الاخلاقي من حياتنا . فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية ، ولا قيمة لها في الرقي والاستعلاء . هذا والمسلمون لم يكونوا في أى عصر من عصورهم حتى أيام محمد إلا فساداً فجاراً . وهم الآن في البلاد المحافظة أفسق وأفجر ، ولا عبرة بهذا كله . فقد كانوا أقوياء وهم فساق فجار لأنهم آخذون بوسائل الحياة المادية ، وهم ضعفاء اليوم — مع فسقهم وفجورهم — لأنهم لا يأخذون بوسائل الحياة المادية .

والمعول على هذه الوسائل ، لا على بر أو فجور !
فليكن أيضاً ، فقد تكون تلك عقيدة الرجل ، وأنا مستعد أن أستمع لكل عقيدة يجاهر بها صاحبها ، ويتحمل تبعاتها ونتائجها .
وطال الحديث . وأنا — بعد هذا كله — لا أزال معتماً أن أقرأ الكتاب ، فإن وجدت فيه حرية رأى حقيقية وفكرة ناضجة قوية .
دافعت عن الرجل ولو خالفته في فكرته كل المخالفة !

ثم عدت إلى الكتاب . وهنا تحول شعورى إلى اشمئزاز عميق .
هذا رجل يوافق يريد أن يطعن الطعنة في صميم الدين خاصة ثم يتوارى ويتحصن في الدين وينكر ما قد يفهمه القارىء من بعض النصوص ومن روح الكتاب كله ، وراء النصوص .

ثم هذا رجل يسفسط ولا يأتى بشيء «دون كيشوت» جديد يطعن في الهواء ويحارب أفكاراً لم يعد لها وجود منذ خمسين عاماً على الأقل .
ثم هذا رجل يسرق أفكار غيره بالنص ، وينكر أن يكون قد قرأ شيئاً عن هذه الأفكار .

ثم - وهو الأهم - هذا رجل مريب !

١ - « فطبيعة المتدين - غالباً طبيعة فآرة ، فآقفة للحرارة المولدة للحركة المولدة للآبداع »

« ونرجع لنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له ولكن الذنب ذنب النفوس البشرية التي لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين والتوفيق بين الروحين : روح الدين ، وروح العمل للحياة »

هكذا : طبيعة « المتدين » غالباً طبيعة فآرة فآقفة للحرارة . الخ . ثم « الدين نفسه لا ذنب له » وأمثالها في كل موضع كثير ؛ والحديث عن الخلق كالحديث عن الدين ، فهو دائماً ضد العنصر الأخلاقي براه قيذاً معجزاً وضعفاً زرياً . ثم يتوارى بعد هنية وينكر ما تنطق النصوص .

هذا رجل تنقصه الجرأة على أن يقول ما يريد أن يقول ، وإذن فلا حرية فكر ، ولا خطر على حرية الفكر ! إنما هي دعوة خبيثة ملتوية ضد التدين ، وبخاصة الاسلام وضد الروح الخلقية في النفس والضمير !

٢ - من من الشعوب الاسلامية الآن يكتفي في مجاهدة الغربيين بالدعاء بأن يحرق الله بيوتهم ويديم أطفالهم ؟ . الخ

قد تكون هذه بعض دعوات المنابر التقليدية ولكن الشعوب هذه هي نجاهد وتقاوم وتكافح وتثور وتسيل دماؤها في كل مكان . ولكن المؤلف لا يرى في المسلمين إلهؤلاء الداعين على بعض المنابر ويجيء بكتابه ليقول : إنكم جميعاً - سواء - أخطأتم الطريق

بالاقتصار على هذا الدعاء .
وهكذا معظم كفاحه لتصحيح أفكار المسلمين « دون كيشوت »
يطعن في الهواء وينازل الأشباح ، ويحارب الأفكار التي حاربها الزمن
منذ خمسين عاما أو تزيد

٣ - وفصل ضخم - هو أحسن فصول الكتاب - عن الإيمان
بالإنسان وهو عنوان كتاب للاستاذ عبد المنعم خلاف ، ولا يشك
إنسان في أن مؤلف الأغلال انتفع بهذا الكتاب انتفاعا كاملا تاما ، وليس
في هذا من حرج . ولكن الرجل حينما سمع منى اسم الكتاب أبدى أنه لم
يسمع به أصلا . . لم أحترم هذا التجاهل ، لأنه ليس سمة الباحثين
المخلصين .

٤ - « نؤمل اليوم أن تحمينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو
المخطط المالحق (الغزو الصهيوني) مع انها هما الخصمان ! إننا نخدع أنفسنا
كثيراً ونضللها حينما نظن أن في حولنا - لو تخلت هاتان الدولتان - أن
نحمي أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارها ، فالصهيونيون
مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمالية والفكرية
والدولية ؟ أما نحن فنكاد نكون مجردين من كل ذلك »

وإذن فعلينا أن نبدأ في الاستعداد لحماية أنفسنا وإلى أن نستعد
يجب أن نحافظ على بقاء قوة إنجلترا بجانبنا لتحميننا من الغزو الصهيوني !
هنا راحة ما !

هذا رجل لا يخاف عليه من اعتقال ولا شنق ولا سواهما ، انه رجل

يعرف طريقه جداً فلا داعي للخوف الشديد !

وعلمت أن الاسطوانة التي أديرَت على أذني أديرَت على آذان
الكثيرين واستنهضت بها أريجية الكثيرين ، وقد تحمس الأستاذ اسماعيل
مظهر فكتب كله قوية في الكتلة عن الكتاب . وأنا واثق أنه لم يقرأه إلى
نهايته . وإلا فلن تفوت فطنة الأستاذ اسماعيل أن تتبين في ثنايا الكتاب
شيئاً غير نظيف !

وكنت بعد هذا كله على نية أن أسكت لولا أن وجدت بدء ضجة
مفتعلة تعطي الكتاب أكثر من قيمته وتصور المسألة في غير صورتها
ولابد أن الأستاذ السوادى وأنا أعرف أريجته — قد تأثر بالاسطوانة
المثيرة ففتح صدر جريدته للدفاع عن حرية الرأي المهددة بالشنق ، لقد
كنت على استعداد أن أدافع عن الرأي المخالف لو وجدت شيئاً ذا قيمة ،
ولو وجدت إيماناً حقيقياً بفكرة ، ثم لو لم اشم هنا وهناك رائحة شئ ما ،
شئ غير نظيف !

(حقوق الطبع محفوظة)

١٩٤٨ - ١٣٦٧